حـــــــوار

البحث عن الكلمة ـ الفعل

(حوار قديم لم يُنشر مع عبد الرحمن منيف)

أجراه: ماجد السامرائي

لهذا الحوار قصّة بدأتْ أواخر السبعينات: كان الروائي عبد الرحمن منيف مقيماً في بغداد.. وكنّا نلتقي أكثر من مرّة في الأسبوع، وفي كل لقاء كانت تأخذنا الأحاديث في شؤون الكتابة وشجون الواقع. وكان أن اقترحتُ عليه، ذات لقاء من لقاءاتنا تلك، أن أُجري معه حواراً شاملاً للفن والموقف داخل عمله الروائي، ومتابعة لآرائه المبثوثة في رواياته ـ التي كان قد تحقّق منها، حتى ذلك الحين: **الأشجار واغتيال مرزوق، شرق المتوسط، حين تركنا الجسر، النهايات، سباق المسافات الطويلة**. فوافق.. وبدأنا الحديث، فكان هذا الجزء هو ما تحقّق خلال جلستين، وظلّ الكثيرُ مما خططتُ أن نتحدّث فيه. إلاّ أن انشغاله مع الروائي الكبير جبرا ابراهيم جبرا في كتابة روايتهما المشتركة: **عالم بلا خرائط** قد أجّل الحوار. ثم كان لسفره الى باريس، ومن ثم الى دمشق، أن قطع سبل التواصل بيننا، الأمر الذي حتّم على هذا الحوار أن يظلّ «حواراً مبتوراً»، مطوياً بين أوراقي: لا هو بالمستكمَل، ولا هو بالمنشور.. لأجد اليوم، وأنا أُعيد قراءته، أنه يشكل «وثيقة» من نوع ما، تخصّ الكاتب وما كَتَبَ، على الأقل في المرحلة التي تمّ فيها تدوينُ هذا الحديث.. خصوصاً وأنّ الكثير مما جاء فيه يشكل ما يمكن اعتباره أساسيات في الكتابة عنده، ومنطلقات للتفكير لا أعتقد أن شيئاً من التغيير الجوهري قد أصابها.

وإذا كان الكاتب، خلال هذه السنوات التي مرّت على هذا الحديث، قد قدّم أعمالاً روائية مهمة، فإننا لا نرى في هذه الأعمال إلا «إضافة نوعية» لتلك الأعمال التي انبنتْ عليها أسئلتنا في هذا الحوار ـ الذي نجد أهميته متحقّقة في أكثر من جانب:

ـ فهو، أولاً، حوار يركّز على المنطلقات التي اتخذها الكاتب أساساً في تحديد زاوية رؤيته لكل من الإنسان والواقع، كعلاقة مشتبكة باستمرار..

ـ وهو، ثانياً، حوار يحاول استقصاءَ إمكانات الدور الذي يرسمه الكاتب لنفسه، ولعمله، في عصر متغيّر، وذلك في مستوى تكريس موقع الكلمة المكتوبة والحفاظ على مصادر قوّتها وفعلها.

ـ وهو، ثالثاً، محاولة لاستقصاء ضمني للتحوّلات التي تعيشها الكتابة اليوم، في ما يتشكل بها من حساسية جديدة تقوم على هذه الرؤية المتشكلة في ذات الكاتب الإبداعية.

*** حبذا لو نبدأ هذا الحديث من علاقتك بروايتك أنت**

ـ الرواية بالنسبة إليّ هي عالمي والرئة التي أتنفس بها، ووسيلتي في مخاطبة الآخرين. وربما كان صحيحاً أنّها هي التي اختارتني، لا العكس. وبمعنى آخر: لم يكن في تخطيطي أن أكون روائياً.. ولكن من خلال عوامل عديدة اكتشفتُ أن هذه «الأداة» هي أكثر الأدوات التي تلائمني، وأكثرُ الأدوات التي أستطيع أن أُحارب بها.

والآن، بعد أن أصبحتْ هي كلّ شيء لي، فقد بدأتُ أكتشف فيها جوانب كبيرة وخطيرة شديدة التأثير، ويمكن أن تساهم في تغيير معالم الحياة التي نعيشها، لأنها تمثّل الرؤية الشاملة.. الكشف الجارحَ.. الخيباتِ الكبرى.. التحريضَ العميق. وبالتالي فإنّها تهيِّئ إمكانية لعملية التغيير تفوق إمكانيات وسائل التغيير الأخرى.

اضمنْ لي روايةً كبيرة، وقارئاً واعياً، أضمنْ لك غداً كبيراً ومشرقاً.

أما بالنسبة إلى علاقتي الشخصية والمباشرة بالرواية، فإنني أجد الذين يجاهدون بصدق وعذاب من أجل تأسيس رواية مقاتلة محرّضة على تدمير كل المعوّقات والتفاهات المفروضة على الواقع العربي، روايةٍ مبشّرةٍ أيضاً بحياة أفضل.. أجدهم أكثر صدقاً وبساطة، وأقرب إلى حقائق الأشياء.

إلى أي حدّ أعتبر نفسي أو يعتبرني الآخرون صاحب وجهة نظر في الرواية؟

أستطيع أن أقول بتأكيد، وبدون تواضع: إنني ما زلتُ، حتى الآن، في نطاق المحاولة، وفي مجال الاقتراب من

القضايا الأساسية، ولم أصل إلى القضايا الكبرى، الخطيرة، التي أحلم بمعالجتها أو بإثارتها. ولذلك فإنّ ما أتمناه هو أن أستطيع قول ما أريد.

ومن هنا فقد يكون من السابق لأوانه تقييدي بصيغ وقوالب من خلال ما كتبتُ. أحلم أن يكون مثلُ هذا السؤال موجوداً بعد عشر روايات أُخرى، بدءاً من **سباق المسافات الطويلة**..

في **سباق المسافات الطويلة** حاولتُ أن أقترب من بعض الأشياءِ التي لم يقترب منها آخرون، وحاولتُ أن أقول أشياء يتردد الآخرون في قولها، وكنت، إلى ما قبل فترة، متردداً شخصياً في قولها. الآن بدأتُ أُعلِّق الجرس، أو التفكير بذلك، على الأقل. ما سوف يحصل بعد ذلك هو أن أتقدّم خطوة، أن أتراجع خطوة، فذلك يتوقف على اعتبارات عديدة. وبعد أن تُكتب الروايات ـ الحلم يمكن أن أتجرّأ وأقول: «أنا والرواية..»

يمكن القول دون تشاؤم: إننا، حتى الآن، على أعقاب عصر الرواية.. في بداياتها الأولى. وباستثناء عدد محدود من الروايات العربية فإنّ الكثير مما يُنشر تحت هذا العنوان لن يبقى طويلاً، ولن يصمد أمام التحديات، إضافة إلى أنه لم يَخْلُق التحريضَ، ولم يولّد النتائج التي كان يحلم بها كتّابها. ما أتصوره وما أفترضه هو أنّ ظهور رواية يعني حالةً مهمة وخطيرة. لكن يجب أن تكون الرواية رواية حقيقية. وأما ما نراه الآن فهو أنّ عدداً كبيراً مما يُنشر تحت هذا العنوان لا يخلق الأثر المطلوب. ولذلك يُعتبر من قبيل الوهم التصوُّر بأنّ العرب دخلوا جدياً في العصر الحديث ـ الذي من مميزاته أن تكون الروايةُ أحدَ معالمه الأساسية.

وإلى أن يولد عصر الرواية سنكون مضطرين إلى أن نشقّ طريقنا بأظافرنا، وأن نفترض الكثير من الأعمال التي يمكن اعتبارها أو إدخالها تحت عنوان «الرواية».

*** إذن هناك بديل للسائد تفكر به، وتقترحه...**

ـ بالتأكيد هناك بديل. لكنْ ليس من مهمة الروائي في الرواية أن يقدّم البديل. يمكن أن يقدّمه ضمناً.. ويمكن أن يقدّمه سلبياً من خلال المواقف والشخصيات والحالات التي يتعاطف معها أو يعتبرها مستقبلية أو يبرّر إيجابياتها. هذه الأمور كلها تُعتَبَر بذوراً للوضع البديل. ومن خلال إدانة مساوئ أشخاص، ومواقف، وحالات معيّنة يُقدّم الروائيُّ بديلاً مفترضاً غيرها.

ليس من مهمة الروائي أن يقدّم برنامجاً سياسياً.. فحين يفعل ذلك ـ وقد فعله بعض الروائيين ـ يخرج عن مهمته كروائي ليصبح شخصاً له صفة أخرى. وهذا لا يمنع أن يتقدم الروائيُّ، بصفته مواطناً، ببرنامج كامل من خلال مقالة سياسية يوضح فيها وجهةَ نظرٍ كاملة. لكن يجب أن يُميّز بدقة، حين يفعل ذلك، بين هذه المهمة وبين كتابة الرواية. فالرواية تقتضي شروطاً فنية صارمة يجب أن لا نتساهل فيها أبداً. وحتى في نطاق خدمة الهدف السياسي التقدمي يجب أن نقدّم روايةً متكاملة فنياً، وأن لا نتنازل في سبيل ما يُفترض أنه هدفٌ سياسيٌّ عن الجانب الفني.

*** هل تقدّم من روايتك نموذجاً لهذا البديل؟**

ـ لا أفترض أن هذا الجانب متكامل كلياً. ولكنّ ما يشفع لي هو أنني مقتنع إلى أبعد حدّ بالجانب الفني للرواية، وأحرص، قَدْرَ الإمكان، على الالتزام به. أما إلى أيّ حد يكون التطابق بين نيتي الحسنة وبين إنجازي الحقيقي، فذلك أمر ربما كان الآخرون أقدرَ مني على أن يقولوا فيه كلمةً منصفة وموضوعية.

*** إنّ جميع رواياتك تثير سؤالاً عن الحالة التي تكتب تحت ضغطها، حتى يبدو لي وكأنّ هناك شعوراً بالحصار، ومحاولةً للتفلّت والخلاص.**

ـ أعتقد أنّ الحصار حالة حقيقية، وهي لا تعنيني وحدي وإنما تعني كلَّ الآخرين، وإنْ كان كثير من الآخرين يحاول أن يتوهم نوعاً من الحرية، أو اللاحصار ويتصرّف في ضوء ذلك، حتى إذا اصطدم بالقضبان السود القاسية ارتدّ وقد أحسّ بخيبة الأمل.

حاولتُ دائماً، في معظم ما كتبتُ، أن أُشير بإصبع ممدودة إلى القضبان والأسلاك الشائكة.. إلى فوّهات البنادق الممدودة.. إلى السكاكين. وحاولتُ أن أقول لكل الآخرين: هذا هو الواقع، وعلينا أن نختار إحدى وسيلتين: فإمّا أن نجد لأنفسنا طرقاً خلفية نستطيع من خلالها تجنُّبَ الأسلاك الشائكة والبنادقِ والسكاكين، وإمّا أن نُصبح أكثر جرأةً وتلاحماً من أجل قهر هذا الحصار الملعون وتدميره.

الحصار الذي أفترضُ وجوده لا يتمثل بالسلطة السياسية وحدها... بل إنّ له عشرات المظاهر: بدءاً من المواقع الغيبية، مروراً بالاضطهاد الطبقي، وانتهاءً بالاغتراب. وعلينا أن نحارب على جبهات متعدّدة، وأن نحارب بشراسة من أجل أن نفكّ هذا الحصار.

هذه هي الحقيقة ـ أو ما أفترض أنه الحقيقة ـ وكلّ ما عدا ذلك مجرّد وهم. وإذا كان يطيب لبعض الناس أن يعيشوا في الوهم، فلا يمكنهم أن يَفْرضوا أوهامَهُم على الآخرين. ولذلك علينا أن نكتشف الحصار في الوقت المناسب، وأن نعمل شيئاً من أجل فكّه.

*** وعلى هذا نجدك دائماً تضع الإنسان في مواجهة مصيره، تاركاً له الطريق مفتوحاً. أما أبطال رواياتك فهم غالباً ما يواجهون مصائرهم عُزّلاً إلا من قوّة الذات والإرادة...**

ـ وقد تفترض أنّ بطلي في مأزق، وأنّ الحصار سيدمّره، وأنه في مواجهة القوى الأخرى في وضع غير متكافئ، وأنّ عليه بالتالي أن يسقط وينتهي.

ولكنّ ما أتصوره هو أنّ الإنسان رغم المأزق الخطير الذي يواجهه، وخاصة في هذه المرحلة وفي هذه المنطقة، هو من أقوى المخلوقات وأكثرها شراسة وأشدّها ذكاءً وصبراً. ورغم حجم الاضطهاد وقسوته، فإنه قادر على أن يكتشف الحقائق، وقادر على أن يكتشف طريقه.. وأخيراً فإنه قادر على الوصول إلى هدفه. وكما ذكرتُ في أكثر من رواية من رواياتي، فإنّ من الممكن أن يدمّر الإنسانُ، وأن يُسحقَ، ولكن الشيء الذي لا يمكن أن يتحقّق أبداً هو أن يستسلم. ونتيجة هذا الإصرار الذي يصل حدّ العناد هناك طرقٌ كثيرة مفتوحة، وهناك مجال كبير للتفاؤل. والأمثلة عندنا وحولنا كثيرة؛ ودون تسمية الأشياء بكامل أسمائها فإنّ الحقائق اليومية، في كثير من الأحيان، تثير الدهشة والمفاجأة لسرعة وقوعها، ولأهميتها.. وتثير تساؤلات مدهشة حتى بالنسبة للمتفائلين.

إزاء هذا الوضع لا يمكن إعتبارُ الإنسان في هذه المنطقة، وفي هذه المرحلة، مجرّد مخلوقٍ أعزل ليس أمامه إلاّ خيّار واحد، هو: الاستسلام. الحقيقة غير ذلك. وهذه الحقيقة نفسها لا تنطبق على شعبنا وحده. إنها حقيقة إنسانية وتعني كل الشعوب في كل الأوقات.

يضاف إلى ذلك تلك المزيّة الرائعة، وهي: إمكانية الاستمرار ونقل المهمات من إنسان إلى آخر، ومن جيل إلى آخر، بطريقة تكاد تكون سريّة في بساطتها ونفاذها. بمعنى آخر: حتى لو افترضنا أن شخصاً، أو جيلاً، قد استسلم نتيجةً لعدم تكافؤ القوى، فإنّ الشخص، أو الأشخاص الآخرين، أو الأجيال الأخرى سوف تواصل المهمة وتنتصر. تقول: إنني متفائل وحزين؟ نعم، أنا كذلك، لأنّ جيلنا لم يحقّق من المهمة المنوطة به إلاّ الجزءَ اليسير. ونتيجةً لذلك يمتلئ هذا الجيلُ بالخيبة. ولكن، نتيجةً لهذه الخيبة نفسها، قد يَحْمل إلى الأجيال الأخرى بذرة خطيرة، وسوف ينقلها إلى تلك الأجيال بطريقة سريّة ـ وربما كانت الرواية إحدى هذه الطرق ـ ليحرّضها على إنجاز شيءٍ عجز هو عن أن ينجزه.

هذه هي «العزلة المقدّسة» التي يَرِدُ ذِكْرُها في الكتابة السياسية والتي تكون، في كثير من الأحيان، طريق النجاة ـ ولا أقصد النجاة الشخصية، وإنما نجاة الآخرين أيضاً. ذلك أنّ المسافة التي تفصل بين الإنسان والتلوّث والشر والأشياء الصغيرة هي ذاتها ستكون عبارة عن جسر للانتقال إلى الضفّة الأخرى.

*** وأيُّ معادل تعمل على إيجاده من خلال هذا كلّه؟**

ـ من الشروط الأساسية التي تساعد على مواجهة المرحلة وتحقيق تقدم حقيقي: الثقة بالآخرين، وفسحُ المجال لهم من أجل المشاركة الفعلية، واعتبارهم مخلصين ذوي مصلحة حقيقية في خدمة وطنهم والدفاع عنه. إن إحدى أكبر المشكلات القائمة في المرحلة الراهنة هي انعدام الثقة بين الإنسان والآخر. ولا شك أنّ عوامل سلبية عديدة كوّنتْ هذه الظاهرة السلبية، وأنّ استمرارها من شأنه أن يؤدّي إلى نتائج خطيرة.

لا يمكن التغلّب على ظاهرة عدم الثقة والخوف والابتعاد عن المشاركة إلاّ من خلال صيغ تستطيع أن تستوعب الآخرين.. أن ترفع الخوف عنهم... أن تعيد الثقة إليهم، من خلال الممارسة الفعلية. والصيغة الوحيدة لذلك كلّه هي: الديمقراطية. من الطبيعي أن تؤخذ في صيغة الديمقراطية اعتباراتُ المرحلة، والقوى، والظروف. ولكنْ أفضل ألف مرّة ـ حتى في حالة احتمال وقوع الخطإ ـ أن تكون الديمقراطيةُ هي صيغة تفاعل الناس واستيعابهم من أن يتم ذلك عبر أية صيغة أخرى.

المأساة العربية الراهنة هي أن الوصاية بمستويات متعددة هي الصفة التي تطبع الكثير من المواقف والصيغ. ونتيجةً لذلك وقعت الهزائم، وحصل الشرخُ، وأصبح الخوف هو القانون الذي يحكم. وتفرّعاً من هذا القانون حَلّ التملّق، والنفاق، وتضخيم الحقائق الصغيرة، وتسرّب القوى المعادية، بحيث لا يمكن الوصول إلى معادلة جديدة إلا بإلغاء معادلة الخوف واستبدالها بمعادلة الثقة والمشاركة.

*** ومن هنا كان الإنسان المأزقي هو موضوعك**

ـ من الخطإ افتراض وجود رغبة في توهم المشكلات أو اصطناعها. فالمشكلة قائمة فعلاً، وهي كبيرة، ويجب أن لا

نهرب منها، بل الأفضل أن نواجهها الآن من أن نواجهها غداً.
إذن، المأزق حقيقي وموجود. ومهمة الفنان، أياً كانت الأداة التي يتعامل بها، هي محاولة المساهمة في عملية الانتقال وإزالة الحواجز ـ أو كما قال أحد الفلاسفة: تسهيل ولادة العالم الجديد والإسراع بها.
هذا هو تصوّري لما يعتبره بعضُ الناس مأزقاً. وأعتقد أنّ الفنان، وبخاصة الروائي، تَثْبت قدرتُهُ وجدارتُهُ من خلال اختياره الموضوعاتِ الأكثر أهميةً وحساسية، ومن خلال طريقته في معالجتها.

*** ولكنّ القضية الأساسية في رواياتك تبقى هي قضية الاحتجاج على العصر.. على وضع الإنسان فيه.. على عمليات تدمير الذات التي تجري بشكل منظّم، وعلى القمع الفكري الذي يتعرض له هذا الإنسان.**

ـ هذه سمات العصر.. هذا ما أفترض أنه الموقف المطلوب. وكل محاولة غير هذه لا يمكن تسميتها إلاّ «هروباً» أو «تأجيلاً» في مواجهة المشكلة.
من أبرز سمات عصرنا، وبخاصة في المنطقة التي نعيش فيها، هي المحاولات التي لا تتوقف من أجل تدمير الإنسان، وإهانته، وإلغاء دوره، ونفيه مادياً إذا اقتضى الأمر. يضاف إلى ذلك حالاتُ الاستلاب الاجتماعي والفكري، في الوقت الذي تفيض فيه ثرواتُ النفط لتطغى على المؤسسات المالية في الغرب، ولتشكّلَ بطريقة إنفاقها مثلاً صارخاً على الانحطاط والسفه وكلِّ ما يَردُ من أفكار سوداء يروّج لها خصومُنا.
ماذا يمكن أن يُفعل إزاء هذا الحجم الهائل من التحديات، وإزاء هذه الموجة الصارخة من اللاعقلانية التي تسود الواقع العربي في المرحلة الحالية؟ إنّ كل عملية سكوت على هذا الذي يجري الآن هي تواطؤ ومشاركة في لعبة قذرة. ومن مهمة الفنان، ومن مهمة كلّ إنسان شريف واعٍ، أن يضع حداً لهذه المهازل التي تجري بشكل صارخ في طول الوطن العربي وعرضه.

*** إذا كان هذا ما تطالب به على صعيد الواقع، فهل هو ذاته ما ترى وجوب تحقّقه في مستوى الأعمال الفنية ـ الإبداعية؟**

ـ بالتأكيد. فالرواية هي عبارة عن مرآة لما هو واقع، أو حلم لما يجب أن يكون. وباعتبار الواقع غير مرضٍ ومليئاً بالتفاهة والانحطاط، فيجب أن يعمل الجميع من أجل إلغائه ومحاولة استبداله. أما الحلم فهو الحافز الداعم للإنسان من أجل مزيد من النضال وخلق عالم جديد يكون أقلّ تعاسة وأقلّ اضطهاداً وأقربَ إلى المنطق والعدالة.
أما كيف يناضل الإنسان، سواء أكان كاتباً أم غير كاتب، فهذه مهمة الواعين.. مهمة الذين يشعرون بمسؤولياتهم من أجل الوصول إلى صيغة أفضل. أساليب النضال وأشكاله لا حدود لها؛ والشعوب، كل الشعوب، تمتلك عبقرية غير محدودة في اختيار أساليب النضال، وفي محاولة ازالة الظلم ووضع حدّ للقسوة وإنهاء التفاوت وإقامة مجتمع متكافئ تسوده قيم جديدة.

*** لكنّ ما يستوقف في هذا هو: أنّ الانسان غالباً ما ينظر إلى العالم، ويقيّمه من وجهة نظره، ولا يَقْبل ما يُملى عليه، ولا يتأثر بغير نزعاته. إنّ ذاته هي التي تبرز هنا، وتكون موجّهاً.**

ـ يُفترض في الإنسان أن لا يَقْبل أن تُملى عليه قناعات، أو يُرغَمَ على شيء غير مقتنع به. لكنّه حين يعمل بوحي قناعاته فلا يعني هذا أن قناعته مجرّد قناعة فردية معزولة عن ضمير الجماعة، أو أنّها تقف في مواجهتها. وما حاولتُ أن أصوّره من خلال بعض الشخصيات إنّما هو ضميرٌ جماعي...

*** ولكنّ ثمة تعارضاً يواجه المجتمعُ به شخصيةً ما، في ما تحمله من أفكار أو تقترحه من مسار؟**

ـ القوانين السائدة في المجتمع في هذه المرحلة قوانين قاسية ولا يمكن تغييرها بعمل فردي، أو بمجرّد الاحتجاج. بل إنّ ذلك يحتاج إلى جملة أساليب وأشكال، إضافة إلى التوافق التاريخي ـ كما يقال دائماً ـ بين الثورة وأداة الثورة.
وهذا التعارض ـ في حال افتراض وجوده بهذا الحجم ـ هو نتيجة عوامل عديدة: عدم الوعي.. عدم التطابق بين الموضوعي والذاتي.. التخلف المتراكم عبر فترات زمنية طويلة، الأمر الذي يجعل بعض «الأبطال» يقفون في مواجهة الجدار، فينشأ بالتالي: التعارضُ بينهم وبين ما هو سائد، وما يشبه الخيبة، وربما الفجيعة.
ما حاولتُ أن أُبرزه، في أحيان كثيرة، هو: أن الرغبة لا تكفي لتغيير الواقع الذي نعيش فيه. وحاولتُ أن أعطي هذا الواقع صفاتٍ أو ملامحَ من الصلابة القاسية لكي يدرك كُلُّ مَنْ يريد التصدّي بأدوات هشّة، أو بقناعات غير متكاملة، أنّ مصيره الضياعُ والفشل، وربّما الجنونُ أو الانتحار.
الواقع، في حدّ ذاته، في منتهى القسوة، لا لأنّه متين ومتماسك ومُقنع، وإنما لأنّه تراكُمٌ لقضايا وعلاقات وإرث لا يمكن إزالتها إلاّ بأداةٍ أشدّ صلابةً وقوّة منها. ومن هنا يبرز ما يشبه التعارض، أو التناقض، بين الواقع والرغبات ـ التي حاولتْ شخصياتٌ معيّنةٌ في رواياتي التعبير عنها.
في أحيان كثيرة قد يكفي الشخصيةَ أن تكون ضميراً.. أن تكون طموحاً، أو حتى حلماً، لتُسهم، بمقدار ما، في

ثَقْب الجدار، وبالتالي في تسرّب النور والأمل بأنّ شيئاً ما يمكن أن يتغيّر. لم أحاول خلق أبطال وهميين، وربما يأخذ عليَّ البعضُ بأنّ معظم الشخصيات التي اخترتُها كانت أقرب إلى البساطة، وربما العادية، في بعض الأحيان. ما أردتُ أن أقوله من خلال هذه الشخصيات هو أنّ الحياة، بصورة عامة، تعني هؤلاء، وهؤلاء هم المدعوون أكثر من غيرهم لأن يعوا حقيقة المأساة القائمة، ويعملوا على تغيير الواقع الذي يسحقهم في كلّ لحظة. هل يستطيعون؟ هل نجحوا؟ يكفيهم شرفُ المحاولة.. شرفُ إدراك هذه الحقيقة واحتجاجهم عليها، وحلمهم بالحقيقة على نحو آخر.

الإنسان، أيّ إنسان، في تعارض مستمر مع عشرات العقبات، والأوضاع، والتحديات التي تنتظره في كل منعطف، وكلّ يوم.

*** إنّ هؤلاء الأشخاص ياتون اقتراحاً، أو دعوة، وهم يحملون هموماً وإشكالات، يطرحونها «مشروعاتِ تغييرٍ» لواقع معيش. فهم يعيشون بنوع من وحدانية التفكير والتصوّر للواقع البديل الذي يقترحون.**

ـ كما أجبت عن سؤال سابق: رغم العزلة، والغرابة إلى حدّ ما، اللتين تميِّزان مواقفَ بعض الشخصيات التي تطرقتُ إليها في رواياتي، فإنّ ما تمثّله من قيم وأفكار وأحلام هي أفكار وقيم وأحلام تعني مجموعة كبيرة من الناس لم يستطيعوا التعبير عن مواقفهم وأحلامهم وطموحاتهم، فجاءت تلك الشخصيات كي تنوب عنهم وتتكلم بلسانهم. ان هذه الشخصيات، بمعنى معيَّن، ليست «وحدانية» أو شيئاً شاذاً، أو مناقضاً للضمير الجمعي. ربما كانت أسبق، أكثر وعياً وحساً، ومن هنا تأتي «عزلتها المقدسة».

*** وفي الأخير يبقى العالم هو العالم: مضنياً، وقاسياً، ومدمِّراً... ويبقى الإنسان: مسحوقاً، ومتمرّداً... وكبيراً أيضاً في تطلعه، وأحياناً في موته (كما هو الحال مع «عساف» في «النهايات»...).**

ـ العالَمُ والإنسان لا يتغيران بشكل عفوي، أو تلقائي. ما يتغيّر هو الشروط التي يعيشها العالم، أو يعيشها الإنسان، وتؤدي إلى خلق الأوضاع الجديدة، أو الصيغة الجديدة... التي يبقى فيها العالَمُ هو العالم والإنسانُ هو الإنسان.

ومع ذلك، يجب أن يُنظر دائماً إلى انعكاس العالم على المجموعة الكبرى أو على الكل، وعلى المنطق والعدالة والانسجام الموجود في هذا العالم تجاه الناس الذين يعيشون فيه.

عندما يكون هناك اختلال من نوع أو آخر فلا بدّ أن يولد ردّ فعل أو مقاومة بهدف خلق انسجام من نوع جديد. ومن هنا تكون البطولة والفجيعة والضياع. بكلمات أخرى هناك دائماً قطبان هما: العالم والإنسان.. ودائماً تتركّز محاولة الإنسان على إيجاد نوع من المنطق يكون أكثر ملاءمةً لمرحلة معيّنة. وإذا عرفنا أنّ تاريخ الانسان هو تاريخ الصراع، فإنّ الصراع دائماً يعني مواقف إنسانية، ويعني طموحاً لخلق شروط أفضل. وهدف التغيير، كما يبدو لي في أحيان كثيرة، غريزة إنسانية؛ فإذا ضمرت هذه الغريزة أو انتهت، أصبح الانسان عبداً لقوى عاتية من غير الممكن السيطرة عليها وترويضها.

ومثلما بدأت حياة الانسان في مراحله الأولى على الأرض بمحاولة الاكتشاف والسيطرة والترويض، فقد استمرّ وجودُهُ في هذا العالم اعتماداً على القيم والمقاييس نفسها. ولكن من خلال الشروط الجديدة، وتعقُّد علاقات الإنتاج وظروف الإنسان الاقتصادية، بدأ الصراع يأخذ منحىً جديداً مختلفاً عن السابق.

وحتى إذا افترضنا أن الإنسان استطاع أن يطوّر ويُخضع الكثير من الشروط، فإنّ التحدّي سيبقى قائماً في نطاق السيطرة على الطبيعة وتحدّيها وإخضاعها.

يجب أن نفهم، دائماً، الصراع والتغيير على أنهما علامات إيجابية، وأن إحدى مآثر الانسان التاريخية والمستمرّة هي رغبته في الوصول إلى شروط أفضل، سواء في ما يتعلّق بالوضع الاجتماعي، أو بعلاقته بما يحيط به في الطبيعة.

*** ومن هنا، على ما أحسب، جاءت شخصياتك محدّدةَ المواقف، واضحة، لها اسم، وواقع اجتماعي تتحرك فيه، ولها «زمان»، وإن لم يكن لها مكان محدّد.**

ـ الشخصية الروائية الواقعية لا تعني، بالضرورة، الشخصيةَ الموجودة فعلاً في الواقع، وإنما الممكنة الوجود، التي تعيش في شروط معيّنة تُحدّد لها منطقَها، ونظرتَها، وطريقتَها في مواجهة الواقع. والإنسان، أيُّ انسان، إذا كان من لحم ودم، ويعيش في واقع، أو من الممكن أن يفرزه هذا الواقع، لا بدّ أن تكون له فلسفة كاملة تجاه كل شيء. قد لا يكون قادراً على التعبير بوضوح عما يفكر به، ويحلم، ويريد... وقد تكون ردّات فعله، في بعض الأحيان، غير متوازنة مع الواقع.. لكنّ هناك في أعماق الوجدان، وأعماق العقل، ثوابت فكريةً ووجدانيةً هي التي تُملي عليه الفعلَ، أو ردَّ الفعل.

أحد الأخطاء التي يقع فيها بعضُ الكتّاب هو أنّ الكاتب يعجز عن الوصول إلى التصوّر الدقيق والحقيقي

للشخصية، الأمر الذي ينتهي به إلى خلق شخصيات من شمع، شخصيات موهومة يمكن أن تثرثر بأفكار كثيرة.. لكن الشيء الأساس المفقود هو: الروح.. هو: الدم الذي يعطي الشخصيّة وجودَها، وواقعيتَها، وبالتالي نكهتَها المتميِّزة، من خلال هذه «الواقعية المفترضة» ـ أي الممكنة الوجود؛ وحتى لو لم تكن موجودة فعلاً، فهي نتيجة شروط إنسانية في مرحلة معيّنة. أي أنّ عنصر الزمان أساسيّ جداً في فعلها أو ردّ فعلها.

أما بخصوص المكان، فعدم تحديده، في أحيان معينة، يأتي بهدف التعميم... وأيضاً لبعض الاعتبارات السياسية. ولكنّ عدم التخصيص، في أحيان كثيرة، هو، بحدّ ذاته، تخصيص، أي أنه ليس هروباً من تحديد المكان بمقدار ما يراد منه أن يكون المكان واسعاً وعامًّا بحيث يشمل ويعني حتى الذين يتوهمون أنهم غير معنيّين.

*** لكنّ شخصياتك، من جانب آخر، تسعى إلى إخضاع العالم لمنطقها، إلا أنّها، في غالب الحالات، تفشل. وهنا: إما أن تندحر وتضيع في غمار الناس، وإمّا أن تواجه الموت. ولكنها، في الحالتين، تترك وراءها «قضيّة» يتردد صداها في نفوس الآخرين وفي ضمائرهم.**

ـ ما المقصود بالنجاح والفشل؟ فحتى الهزيمة، في أحيان معينة، هي، بمعنى من المعاني، انتصار. فإذا كانت الشخصية بسلوكها ومواقفها، وحتى بنهايتها قد هزّتْ الوجدان، وغيّرتْ في المقاييس، وخلقتِ القلق، فقد أدّت مهمتها. يجب أن لا ننظر إلى موضوع النجاح والفشل بالمقاييس العادية ضمن القيم المتعارف عليها، أو السائدة. فما يعتبره بعضُ الناس نجاحاً أو فشلاً قد يبدو، في نظر الآخرين، قيمة مختلفة.

يخيَّل إليّ أنّ الطريق الحقيقية إلى النصر هي طريق الهزيمة ـ بمعنى: أنْ ليس هناك نصر حقيقي إلاّ على تراكم من الهزائم والخيبات والتجارب. وهذا هو النصر المطلوبُ الوصولِ إليه في هذه المرحلة ـ أي نصر واقعي. ودون مناقشات أو تفسيرات فرعية لبعض المقولات المطروحة، فإنّه يبدو لي أن أغلب القيم والمقاييس، حتى التي تبدو بديهية، بحاجة إلى مراجعة، وربما إلى تغيير.

الموت أو الانتحار لا يعنيان، بالضرورة، الهزيمة.. كما أنّ بعض الحالات التي لها أسماء كبيرة وخطيرة قد لا تعني هذه الدلالات واقعياً.

*** وهل هذا، تحديداً، هو ما يدعوك إلى اتخاذ «الأسلوب الواقعي» أسلوباً لرواية ما ترويه؟**

ـ لنتفق، أولاً، على مفهوم محدّد للواقعية.

*** أفهم الواقعية، وأعني بها هنا: «إمكان الوجود»، إمكان حدوث ما حدث. ثم سمات الشخصيات، وطبيعة توجهاتها والهموم التي تطرحها، والمشكلات التي تتصدى لها ـ والتي تتناولها أنت، روائياً، على طبيعتها هذه.**

ـ ما الوصف الذي يمكن أن تطلقه على روايتيّ: **حين تركنا الجسر والنهايات**؟ كثيرون رأوا فيهما بُعْداً عن الواقعية، سواء كموضوع أو طريقة بناء، واعتبروا هذه «الطريقة» أقرب إلى مدارس ليست على صلة صداقة مع الواقعية.

ربما كان الموضوع بحاجة إلى تحديد مفاهيم لكي تكون مسلّمات من أجل إجراء حوار بلغة واحدة. ويبدو لي أنّ هذا الأمر يتعذّر في أحيان معينة نظراً لاختلاف المنطلقات، الأمر الذي يخلق شيئاً من الارتباك.

*** لو أخذنا هاتين الروايتين تخصيصاً، فإننا نجد فيهما: مبنًى رمزياً لحدث واقعي. وهذا هو ما يجعل لروايتك ـ كما أرى ـ بُعدها الواقعي الشمولي، ويخرجها من دائرة التفسير المحدود للواقعية.**

ـ هي محاولة أيّ كاتب. ويبدو لي أننا بحاجة إلى فهم أعمق للواقعية لكي نعطيها دلالات وعمقاً أكبر مما ساد، أو أكثر مما حاول بعضُ الناس حَصْرَها فيه. الواقعية، كما تبدو لي، سواء كموضوع أو طريقة بناء، أغنى وأعمق من كثير من المفاهيم السائدة الضيّقة التي يراد حصرها فيها. ولذلك فإننا لو انطلقنا من مفاهيم واحدة، أو متقاربة، في تحديد بعض المدارس أو الأساليب، لكان من الممكن أن نصل إلى نتائج أفضل.

*** لو تركتُ الأمرَ لك هنا، فعلى أيِّ نَحْوٍ تحدّد عملك الروائي، لأقل من حيث «انتماؤه المدرسي»؟**

ـ ليس لي أن أصنّف عملي، لأنّ هناك كثيرين تبرّعوا، نيابةً عني، في تصنيفي، وربما كان لهم الحقّ في ذلك! فقد أكون، في نظر البعض واقعياً، أو سريالياً، أو رمزياً، وقد أوضع في خانة الوجوديين، والرافضين، والسلبيين، والمتشائمين ـ إلى آخر هذا القاموس الذي يسود النقد في هذه المرحلة.

*** وفي نظر نفسك، أين أنت، موقعاً، بين هذه التصنيفات؟**

ـ إني كاتب رواية، وأحاول أن أكتب رواية جيّدة: روايةً تعني الناس وتقلقهم.. تساعد في زيادة وعيهم، وفي تحريضهم على أن يعملوا شيئاً من أجل بناء عالم أفضل.

بغداد

حكاية الليمونات الثلاث

جان طنوس

تَستخدم حكاياتُ الأطفال الشعبية لغةَ الرموز وطريقةَ السرد للوصول إلى أهدافها التربوية بل الفلسفية إنْ جاز التعبير. وتتمثّل مهمتها الجلّى في جذب الطفل أو المراهق إلى طريق النمو النفسي، وهي لهذا تقدِّم له خبرةً معرفية ثمينة جداً. فالشخصيات الشريرة التي تتميز بالدونيّة تفشل دائماً، وأما الشخصيات الطيبة فهي تتسلق قمم النجاح رغم المصاعب والعذابات التي تصادفها. وبعبارة أخرى فإنّ حكاية الأطفال الشعبية تطالب المستمع أو القارئ بأن يتعرف على أسرار الحياة، لا تلك التي تثوي في بطون الكتب بل تلك التي تتصل بالحياة مباشرةً، من مثل الأسئلة التالية التي تراود الإنسان عامةً والطفلَ والمراهقَ خاصةً: ماذا علي أن أفعل كي أصبح راشداً، أيْ ناضجاً ومعافى نفسياً؟ كيف أتخلّص من النزعات اللاشعورية المدمِّرة؟ لماذا يتعذب البريء ويُكافَأُ المجرم؟ هل يمكن القول إنّ البريء مخطئ لنقص خبرته النفسية النضوجية وإنّ الشرّير ينجح لأنه يستغل هذه المعرفة في طريق الشر؟ وأخيراً ما هو الشر وهل يرادف مركّبات الدونية وجهل إمكانات الذات؟ وما هو الخير وهل يتماثل مع الصحة النفسية والتصرف السليم؟.

حكاية «الليمونات الثلاث»*، التي تبدو للوهلة الأولى وكأنها لَغْوٌ لا طائل منه أو هذيانُ شاعر محموم، تتطرق إلى مشكلتين مهمتين. الأولى تتعلق بعلاقة الشاب بالجنس الآخر؛ فلماذا يؤْثِر عزيز بطلُ القصة أن يظل عازباً، ولماذا يسافر بعيداً كي يأتي بعروس أحلامه، وما هي الصعوبات ـ النفسية طبعاً ـ التي يصادفها في سفره هذا؟ وأما المشكلة الثانية (التي تتردد دائماً في حكايات الأطفال الشعبية) فتتصل بالعلاقة الغريبة بين الإنسان النبيل والإنسان الوضيع، بين الخير الضّعيف والشرّ القوي. فالإنسان الوضيع تستعبده نزعاتٌ مدمِّرة تدفعه إلى القضاء على البريء، واحتلالِ مكانه متوسِّلاً أبشعَ الوسائل، بعيداً عن القيم التي تتعادل هنا مع الصحة النفسية. وصراع النبيل والوضيع يذكِّرنا بفلسفة نيتشه، إلا أنّها هنا فلسفة مقلوبة: فالوضيع يعاني من الدونية، وأما النبيل فتنقصه الخبرة، أيْ معرفةٌ أعمقُ لذاته وللنفس البشرية عامة. الصراع هنا مشوِّق لأنه واقعي حقيقي، ومشبَعٌ بالمضامين الفلسفية والسيكولوجية، لكن من خلال لغة السرد والرموز.

*

ماذا تقول القصة؟

رغب حنون الملك أن يزوِّج ابنَه عزيزاً، لكنّ هذا كان ينتحل الأعذار مفضِّلاً حياة العزوبية والانصراف إلى الصيد وارتداء الثياب الجميلة. وذات يوم استدعاه أبوه وطلب منه أن يحسم أمره فيختار رفيقة حياته، فاضطُرَّ عزيز إلى الرضوخ لمشيئة والده، ولكنه عزم على السفر إلى منطقة بعيدة ليأتي بالعروس المنتَظَرة. فركب فرسه في فصل الشتاء، وما إن اقترب من الشاطئ وركب سفينتَهُ حتى تحركتْ من تلقاء نفسها وسارت به إلى جزيرة ضائعة في عرض البحر. هناك اكتشف أنه دخل فصل الصيف، مع أنه كان قد ترك مملكته والشتاءُ لم يولِّ. سار قليلاً وأخذ يسأل ملكات الشتاء والصيف والخريف عن عروس أحلامه، وكلٌّ منها تحيله على رفيقتها، حتى وصل إلى ملكة الربيع التي استجابتْ لرجائه فأعطته ثلاث ليموناتٍ وسكيناً وكأساً ذهبية، وطلبتْ منه أن يقطع الليمونة بالسكين فتبرز له صبيةٌ جميلةٌ على عزيز أن يسقيها من الكأس لتصبح زوجته؛ لكنّه إنْ لم يستطع أن يسقي الصبايا الثلاث فذلك يعني أنّ عزيزاً ليس جديراً بالزواج. على أنّ الأمير عزيزاً لم يتمكن من مقاومة سحر

* ـ من كتاب **حكايات لبنانية** لكرم البستاني الصادر عن دار مارون عبود ببيروت ١٩٧٩، وهو مجموعة حكايات اقتبسها الكاتبُ ـ كما يقول في المقدمة ـ من أفواه العجائز والجدّات. ولذلك يمثِّل قيمة تراثية شديدة الخطورة لأن المؤلف حافظ على حوادث الحكاية وأثبتها كما هي دون تغيير. والغريب أن الكتاب على أهميته لم يستحق دراسةً تُذكر عند النقاد أو علماء النفس والاجتماع.